البحترى أمير الصناعة

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

(تتمة ما نشر فى العدد الماضى)

وللبحترى فى ثنايا أبواب شعره أبيات كثيرة فى الحكم والأمثال ، بعضها يدل على فطنة لبعض نواحى الحياة والنفس ، وبعضها معان مطروقة كساها ثوباً قشيباً. فمن حكمه وأمثاله قوله:

أراقبُ صولَ الوغدحين يهزه اقتدار وصول الحر حين يضام

وقوله :

هو الحظ ينقص مقداره لِمَنْ وزن الحظ أو كالَهُ

وقوله :

لولا التباين فى الطبائع لم يقم بنيان هذا العالم المجبول

وقوله :

ولستَ ترى عود القتادة خائفاً سموم الرياح الآخذات من الرند

وقوله :

واليأس إحدى الراحتين ولن ترى
تعباً كظن الخائب المكدود

وقوله :

كالكوكب الدُّرِّىِّ أخلص ضوءهُ
حلكُ الدجا حتى تألق وانجلى

وقوله :

تناس ذنوبَ قومك إن حفظا الذنوب إذا قدمن من الذنوب

وقوله :

خلت جهلاً أن الشباب على طول الليالى ذخيرة ليس تفنى

وقوله :

أدَعُ الصاحب لا أعذله لا يُسَمَّى بِسَفُوقٍ فَيَعِقّ

وقوله :

وقديماً تداول العسر واليسـ ـر وكلٌّ قَذًى على الريح يطفو

وقوله :

صعوبة الرزء تُلْقَى فى تَوَقُّعِه مستقبلاً وانقضاء الرزء أن يقعا

وقوله :

أغشى الخطوبَ فاما جنّ مأربتى فيها أُسَيِّر أو أحكمن تأديبى
إن تَلْتَمِس تمرَ أخلاقَ الأمورِ وإنْ
تلبثْ مع الدهر تسمعْ بالأعاجيب

وقوله :

وكأنما شرف الشريف إذا انتمى سِبرٌ جناه على الوشيج الأسمر

وقوله :

إذا محاسنىَ اللاتى أُدِلُّ بها كانت ذنوبى فقل لى كيف أعتذر

وقوله :

ما أضعف الإنسان لولا همة فى نُبْلِهِ أو قوة فى لُبِّهِ

وقوله :

والشيء تُمْنَعُهُ تكون بِفَوته أجدى من الشيء الذى تُعطاهُ

وقوله فى التأسى بمصارع الموتى :

إذا شئتَ أن تستصغر الخطب فالتفت
إلى سلف بالقاع أُهْمِلَ نائمه

ومثل هذا كثير فى شعره .

وعندى أن غزل البحترى فى مجموعه أرق وأحلى وأكثر نصيباً من الوجدان الفنى من غزل أبى تمام . فمن قصائد غزله المشهورة قصيدته التى يقول فيها :

تمشى فتحكم فى القلوب بِدَلِّها وتميس فى ظل الشباب وتخطر

وقصيدته التى يقول فيها :

ذو فنون يريك فى كل يوم خلقا من جفائه مستجدا
أغتدى راضياً وقد بتُّ غضبا ن وأمسى مولى وأصبح عبدا

وقصيدته التى يقول فيها :

أيها العاتب الذى ليس يرضى تم هنيئاً فلست أطعم غمضا

وهى رقيقة ومشهورة . ومن بديع غزله قصيدته التى يقول فيها : « ردى على المشتاق بعض رقاده » والقصيدة التى يقول فيها :

دنتْ عند الوداع لوشك بين دنو الشمس تجنح للأفول

وفيها يقول :

وذَكَّرَنيكِ والذكرى عناء مَشَابِهُ فيكِ بينةُ الشُّكولِ
نسيم الروض فى ريح شمال وصوبُ المزن فى راح شمولِ

والتى يقول فيها :

وجدتُ نفسك من نفسى بمنزلة هى المصافاةُ بين الماء والراحِ

والتى يقول فيها :

وهجر القرب منها كان أشهى إلى المشتاق من وصل البعاد

والتى يقول فيها : « منًى وصل ومنك هجر » والتى يقول فيها :

بات أحلى لدىَّ من سِنَةِ النو م وأشهى من مفرحات الأمانى

والتى يقول فيها :

إذا ما الكرى أهدى إلىَّ خياله شفى قربُهُ التبريحَ أو نقع الصدى

والتى يقول فيها :

وفيهنّ مشغولٌ به الطرف هارب بعينيه من لحظ المحب المُخَالِس

وهى ملاحظة فنية جميلة . والتى يقول فيها :

لم يُرْوَ من ماء الشباب ولا انجلت ذهبية الصبوات عن أيامه

وفيها يقول :

أتُريكَ أحلامُ الكرى ذا لوعة كلِفَ الضلوع يراك فى أحلامه

والتى يقول فيها :

أأنتِ ديار الحى أيتها الربى الـ ـأنيقـــة أم دار المها والنعائم

وأيامنا فيك اللواتى تَصَرَّمتْ مع الوصل أم أضغاث أحلام نائم

لعل الليالى يكتسين بشاشة فيجمعن من شمل النوى المتقادم

والبحترى شاعر وصاف بما له من شهوة تذوق المرئيات بجمال فنه ، فإن الفنان يتذوق مناظر الطبيعة والمرئيات عموماً كما يتذوق الطعام من له ذوق خاص فى الطعام والشراب ؛ وقد لا يكون شره النظر أو قد يكون، كما أن الذى له ذوق خاص فى الطعام والشراب قد يكون شره البطن وقد لا يكون

ومن أجل شهوة تذوق الأمور بفنه أشك فى أن البحترى قد تعمد أخْذَ كل ما أخَذَ من ، المعانى فقد تكون شهوة التذوق بالعاطفة الفنية هى التى ساقته إلى هذه المعانى سواء أكان قد اطلع عليها أم لم يطلع وهى على أى حال مفردات . ومن قصائده المشهورة فى الوصف قصيدة وصف آثار الفرس الفنية التى يقول فى أولها (صنت نفسى عما يُدَنِّس نفسى) وقصيدته فى وصف بركة المتوكل التى يقول فيها :

كأنما الفضة البيضاء سائلة من السبائك تجرى فى مجاريها

إذا علتها الصَّبا أبدت لها حبكا مثل الجواشن مصقولاً حواشيها

فحاجب الشمس أحياناً يضاحكها ورَبْقُ الغيث أحياناً يباكيها

إذا النجوم تراءت فى جوانبها ليلاً حسبتَ سماء ركِّبتْ فيها

ومن أوصافه المعروفة وصفه الشقائق فى الأبيات التى يقول فيها : (سقى الغيثُ أكناف الحمى من محلة) وقصيدته التى يصف فيها الربيع وآثاره وفيها يقول :

وقد نَبَّهَ النوروزُ فى غلس الدجا أوائلَ ورد كن بالأمس نُوَّما

يُفَتِّقها برد الندى فكأنه يبثُّ حديثاً كان قبل مُكَتَّما

وله قصيدته البائية المشهورة فى وصف صيد الفتح بن خاقان للأسد ، والدالية التى فيها وصف لقائه (أى البحترى) الذئب فى البيداء ، ويعاود وصف الربيع كما فعل فى قصيدته الرائية التى يقول فيها : (ألم تر تفليس الربيع المبكر) والميمية فى وصف قصرى المتوكل الصبيح والمليح وهى التى يقول فيها :

حلل من منازل المُلكِ كالأنـــجم يلمعن فى سـواد الظلام

وقصيدته فى وصف البيان وهى التى يقول فيها :

لتفننتَ فى الكتابة حتى عَطَّل الناس فن عبد الحميد[1]

وهى مشهورة . وله أوصاف أخرى منتشرة فى قصائده من وصف للنبات والطبيعة أو للحروب وآثارها مثل القصيدة الفريدة التى يقول فيها :

أسيت لأخوالى ربيعة إذ عفت مصايفها منها وأقوت ربوعها

ومرائى البحترى مرائى صنعة تكاد تغطى على الصنعة لأن العاطفة الفنية فيها تغنى على العاطفة الحقيقية أو قد تكون مقرونة بشىء منها ، وقد ظفر بنو حميد بمراث بلغت غاية الروعة الفنية من شعر أبى تمام ومن شعر البحترى . ولعل أبدع قصائده فيهم قصيدته التى يقول فى مطلعها :

أقصر حميـــد لا عزاء لمغرم

ولا قَصَّرَ عن دمع وإن كان من دم

أفى كل عام لا تزال مُروَّعاً بفَذٍّ نَمِيٍّ ثارة أو بتوأم

إلى أن يقول :

فصرتَ كعُشٍّ خلَّفتْهُ فراخه

بعليـــاء فرع الأثلة المُتَهَشِّم

ثم يقول :

سلام على تلك الخلائق إنها مُسَلَّمَةٌ من كل عار ومأثم

ومن المختار له فى الرثاء قصيدته فى سليمان بن وهب التى يقول فيها :

أأُخَىَّ نَهْنِهْ دمعك المسفوكا إن الحوادث ينصرمن وشيكا

وقصيدته التى يقول فيها (ابنى عبيدٍ شدما احترقتْ لكم) والتى يقول فيها (جحدنا سهمة الحدثان فينا) . ومن أشهر قصائده فى الرثاء رثاء المتوكل وقد قيل إن ابنه المنتصر ولى العهد دس له من اغتاله وإلى ذلك يشير البحترى فى قوله : —

أكان وَلِىُّ العهد أضمر غدرة

فمِنْ عَجَبٍ أنْ وُلِّىَ الأمر غادِرُهْ

وهو لم يتمتع بالخلافة إلا بضعة أشهر . ويقال إن ضميره أفسد عليه تلك الأشهر من حياته . ويخيل إلى أن البحترى لم يعلن هذه

(١) فى قصيدة يمدح بها محمد بن عبد الملك الزيات

القصيدة إلا بعد وفاة المنتصر إلا أن يكون قد تنبأ بها وأجاب الله دعوته فى قوله :

فلا مُـلِّىَ البـاقى تراثَ الذى مضى
ولا حملتْ ذاك الدعاء سنـــابرُهْ

وفيها يمدح المعتز بن المتوكل فيقول[1] :

وإنى لأرجو أن تُرَدَّ أمورُكم إلى خَلَفٍ من شخصه لا يغادرُهْ
مُقلِّب آراء تُخـــافُ أناته
إذا الأخرق العجلان خيفت بوادرُهْ

وإنى أشك فى صدق قوله وأرى أنه من شواهد ما قدمت من اختلاط الخيال بالعاطفة :

أُدافعُ عنـــه باليدين ولم يكن
ليثنى الأعادى أعزلُ الليـل حاسرُهْ
ولو كان سيفى ساعة الفتك فى يدى
درى الفاتك العجلان كيف أساوره

إذ أنه لو فعل كما قال إنه فعل لقتله الفاتكون . ولكن المشهود فى القصيدة روعة الصنعة وفخامتها لاعمق العاطفة . والحق أن البحترى إذا ملك صناعته ولم يتكلفها أتى بها وهى فى بهجتها وحلاوتها حقيقة بالمدح الذى مدح به البحترى منزلة ممدوحه فى قوله :

فَنيت أحاديث النفوس بذكرها وأفاق كلُّ منافس وحسود

وأصدق قول يقال فى البحترى وأبى تمام هو ما قاله البحترى نفسه إذ قال إن جيد أبى تمام خير من جيده ، وردىء أبى تمام شر من رديئه . ومثل هذا القول يصح أن يقال أيضاً فى البحترى وابن الرومى ، ولا نعنى بالجودة الصناعة فحسب بل كل ما ينهض به الشعر من ميزات . وللبحترى قصائد فى العتاب هى من أجلّ ما كتب فى اللغة العربية فى هذا الباب ولا سيما عتابه للفتح بن خاقان فى قصيدته البائية التى يقول فيها :

ولو لم تكن ساخطا لم أكن أذم الزمان وأشكو الخطوبا

والميمية التى يقول فيها :

أعينك أن أخشاك من غير حادث تبيّن أو جرم إليك تقدّما

وفى صنعة عتابه كما فى صنعة مدحه حلاوة وسهولة المتناول ، وليس فيها اللجاجة الفكرية التى بذلها ابن الرومى فى قصيدته فى العتاب التى يقول فيها (يا أخى أين ربع ذاك اللقاء) . على أن هذه القصيدة لابن الرومى لا تمثل إلا ناحية واحدة من نواحى عبقريته فى العتاب فله نواح أخرى منها ناحية العتاب الممزوج بالهجاء ، ومنها ناحية العتاب الذى فيه خضوع للمعاتب . وابن الرومى أوسع مقدرة من البحترى وأكثر نصيباً من ذخائر اللب وإن كان البحترى أوفر نصيباً من بهجة الصنعة .

وقد جاء فى كتاب الأغانى وصف إنشاد البحترى لشعره : فقال المؤلف إنه كان يتشادق فى إنشاده ، ويتزاور ، ويتمايل ، ويلوح بكمه ، ويتقدم ويتأخر ، ومعنى هذا الوصف أنه كان يُمَثِّل كما يصنع الممثل على المسرح ، وإنى أميل إلى تصديق هذه الرواية إذ أنها تؤيد ما ذهبت إليه من أن البحترى كانت عنده صفة يكثر ظهورها فى بعض الممثلين ، وهى اختلاط الأحاسيس التى يمثلونها بحقائق الحياة حتى يصعب التمييز بينهما ، وقد ضربت من أمثال ذلك مثلاً من غزله ومن رثائه للمتوكل . ولم يكتف البحترى فى إلقائه بطريقة الممثلين فى الإنشاد ، بل كان ينظر إلى الحاضرين ويطلب منهم الاستحسان ويلومهم إذا لم يظهروا الإعجاب والاستحسان ؛ وطلبُ الاستحسان من المشاهدين والحرص عليه والانتشاء به من صفات الممثلين أيضاً . وقد ضجر منه المتوكل يوماً لغالاته فى هذه الأعمال . فأغرى به شاعراً صغيراً أعبث به فى شعره . ولو جاز أن نتمنى سماع إنشاد البحترى لشعره لتمنينا أن نسمعه ينشد بهذه الطريقة التمثيلية قطعة من شعره تساعد على إظهار مقدرة الممثل مثل قوله فى قتاله للذئب :

عوى ثم أقعى فارتجزت فهجته فأقبل مثل البرق يتبعه الرعد
فأوجرته خرقاء تحسب ريشها على كوكب ينقض والليل مسود
فما ازداد إلا جرأة وصرامة وأيقنت أن الأمر منه هو الجد
فأتبعتها أخرى فأضللت نصلها بحيث يكون اللب والرعب والحقد
فخرّ وقد أوردته منهل الردى على ظمأ لو أنه عذب الورد
وثلت خسيساً منه ثم تركته وأقلعتُ عنه وهو منعفر فرد

ولا غرابة أن يكون عند الشاعر الذى عماده الصناعة اللفظية صفة الممثل الذى ينتشى بما يقول حتى يخلق له القول عاطفة فنية لا تكاد تميز من الأحاسيس الناشئة من حوادث الحياة فى نفوس بعض ذوى الفنون . وفى الأخبار التى وردت عن البحترى نرى أنه كان يمدح شاعرين هما : أبو تمام ، والعباس بن الأحنف . وفى شعر البحترى أثر محاكاته للأول فى الصنعة البيانية ومعانيها وللثانى فى بعض النزل من شعره

عبد الرحمن شكرى

(١) بعد المنتصر ولى الفتلة المستعين بالله وكانت خلافته مضطربة وكان للمعتز حزب قوى بالرغم من أنه كان محجوزاً ومالبث حزبه أن تغلب واستخدم الحرس التركى لخلع المستعين وتولية المعتز الذى انتفض عليه الجند أيضا